سيد قطب

تفسير آيات الربا

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير آيات الربا

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

© دار الشروق
بيروت: شارع الياس، شارع سيدة عبد نايا، بناية صفيتا ص.ب: ٨٠٦٤ - برقياً: داشروق
تلكس ٢٠١٧٥ SHOROK هاتف: ٣١٥٨٥٩ ، ٨١٧٢١٣ ، ٣٠٢٩٨١ ، ٨٦٧٥٥٥ - فاكس ٨١٧٧٦٥
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - ت: ٣٩٢٣٤٥٧٨/٣٩١٣٩٣٣ فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس
٩٣٠٩١ SHROK UN ٨ شارع سيبويه المصري، مدينة نصر: ٤٠٢٣٣٩٩/٢٦٢٥٤٠٨ - فاكس ٢٧٥٦٧

مِنْ سُورَةِ البَقَرَة

«الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِبا . وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا . فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) . يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » (٢٧٦)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢٧٧) .

«يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ (٢٧٨). فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩). وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ، وأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ. وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ».. (٢٨١).

الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي .... الوجه الكالح الطالح هو الربا !

الصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل، والربا شح، وقذارة ودنس، وأثرة وفردية ..

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد. والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه. من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده. ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يسترbحه شيئاً ..

ومن ثم فهو — الربا — الوجه الآخر المقابل للصدقة .. الوجه الكالح الطالح !

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود ! عرضه عرضاً منفراً ، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة ، ومن جفاف في القلب وشر في المجتمع ، وفساد في الأرض وهلاك للعباد .

ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . .

ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا ـ في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى ـ ولله الحكمة البالغة . فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره . ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر ؛ ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث .فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى . ويدرك ـ من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام ـ يدرك اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة تصديقاً حياً مباشراً واقعاً. والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي،

في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها ..وتتلقى ــ حقاً ــ حرباً من الله تصب عليها النقمة والعذاب .أفراداً وجماعات ، وأمماً وشعوباً ، وهي لا تعتبر ولا تفيق !

وحينما كان السياق يعرض في الدرس السابق دستور الصدقة كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ، ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة .. في مقابل ذلك النظام الآخر الذي يقوم على الأساس الربوي الشرير القاسي اللئيم .

إنهما نظامان متقابلان : النظام الإسلامي . والنظام الربوي ! وهما لا يلتقيان في تصور ! ولا يتفقان في أساس ؛ ولا يتوافقان في نتيجة .. إن كلاً منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة . وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف ..ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة ، وكان هذا التهديد الرعيب !

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي ــ ونظام الحياة كلها ــ على تصور معين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود .

يقيمه على أساس أن الله ــ سبحانه ــ هو خالق هذا الكون فهو خالق هذه الأرض ، وهو خالق هذا الإنسان ..هو الذي وهب كل موجود وجوده ..

وأن الله ــ سبحانه ــ وهو مالك كل موجود بما أنه هو

موجده – قد استخلف الجنس الإنساني في هذه الأرض ؛ ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات ، على عهد منه وشرط . ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى ، يصنع فيه ما يشاء كيف شاء . وإنما استخلفه فيه في إطار من الحدود الواضحة . استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله . وحسب شريعته فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ . وما وقع منه مخالفاً لشروط التعاقد فهو باطل موقوف . فإذا أنفذه قوة وقسراً فهو إذن ظلم واعتداء لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله . فالحاكمية في الأرض – كما هي في الكون كله – لله وحده . والناس حاكمهم ومحكومهم – إنما يستمدون سلطانهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه، وليس لهم – في جملتهم – أن يخرجوا عنها ، لأنهم إنما هم وكلاء مستخلفون في الأرض بشرط وعهد وليسوا ملاكاً خالقين لما في أيديهم من أرزاق .

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله فيكون بعضهم أولياء بعض ، وأن ينتفعوا برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل – لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية . ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة – فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه .

مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسر ، الله له — فلا يكون أحدهم كلاً على أخيه أو على الجماعة وهو قادر كما بينا ذلك من قبل . وجعل الزكاة فريضة في المال محددة . والصدقة تطوعاً غير محدد .

وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال ، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذي أعطاهم ؛ وفيما يستمتعون به من الطيبات التي أحلها لهم . ومن ثم تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بحدود الاعتدال . وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة. وبخاصة أن المؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره.

وشرط عليهم أن يلتزموا في تنمية أموالهم وسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين ؛ ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الأرزاق بين العباد ، ودوران المال في الأيدي على أوسع نطاق : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وكتب عليهم الطهارة في النية والعمل ، والنظافة في الوسيلة والغاية ، وفرض عليهم قيوداً في تنمية المال لاتجعلهم يسلكون إليها سبلاً تؤذي ضمير الفرد وخلقه ، أو تؤذي حياة الجماعة وكيانها [1].

وأقام هذا كله على أساس التصور الممثل لحقيقة الواقع في

---

١ — يراجع فصل « سياسة المال » في كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » .

هذا الوجود ؛ وعلى أساس عهد الاستخلاف الذي يحكم كل تصرفات الإنسان المستخلف في هذا الملك العريض .

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني إطلاقاً ؛ ونظام يقوم على تصور آخر .تصور لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى . ومن ثم لا رعاية فيه للمبادىء والغايات والأخلاق التي يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها .

إنه يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر . فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ؛ وهو غير مقيد بعهد من الله ؛ وغير ملزم باتباع أوامر الله !

ثم إن الفرد حر في وسائل حصوله على المال ، وفي طرق تنميته . كما هو حر في التمتع به . غير ملتزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط ؛ وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين . ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا أضاف إلى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته . وقد تتدخل القوانين الوضعية أحياناً في الحد من حريته هذه — جزئياً — في تحديد سعر الفائدة مثلاً ؛ وفي منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب والغش والضرر . ولكن هذا التدخل يعود إلى ما يتواضع عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم إليه أهواؤهم ؛ لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية !

كذلك يقوم على أساس تصور خاطىء فاسد . هو أن غاية الغايات للوجود الإنساني هي تحصيله للمال — بأية وسيلة —

واستمتاعه به على النحو الذي يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به ؛ ويدوس في الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين . !

ثم ينشىء في النهاية نظاماً يسحق البشرية سحقاً ، ويشقيها في حياتها أفراداً وجماعات ودولاً وشعوباً ، لمصلحة حفنة من المرابين ؛ ويحطها أخلاقياً ونفسياً وعصبياً ؛ ويحدث الخلل في دورة المال ونمو الاقتصاد البشري نمواً سوياً .. وينتهي — كما انتهى في العصر الحديث — إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شراً ؛ وشرذمة ممن لا يرعون في البشرية إلاً ولا ذمة ، ولا يراقبون فيها عهداً ولا حرمة .. وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادا ، كما يداينون الحكومات والشعوب — في داخل بلادهم وفي خارجها — وترجع اليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم ، في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهداً !

وهم لا يملكون المال وحده .. إنما يملكون النفوذ .. ولما لم تكن لهم مبادىء ولا أخلاق ولا تصور ديني أو أخلاقي على الإطلاق ؛ بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادىء ؛ فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولا تقف في طريق جشعهم

وخسة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التي يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس في المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة ،، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد ؛ وإلى انحراف الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين ، الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية !

والكارثة التي تمت في العصر الحديث — ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية — هي أن هؤلاء المرابين — الذين كانو يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية — قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها .. سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي .. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول ، والأساس الصحيح الذي لا أساس

غيره للنمو الاقتصادي ؛ وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين – غير العمليين – وأنهم إنما يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع ؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب، للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفسه . الذي تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجري جرياناً غير طبيعي ولا سوي .ويتعرض للهزات الدورية المنظمة! وينحرف عن أن يكون نافعاً للبشرية كلها، إلى أن يكون وقفاً على حفنة من الذئاب قليلة !

إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة – وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ؛ وهم قد نشأوا في ظله ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التي تبثها عصابات المال في كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق . وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة «دكتور شاخت» الألماني ومدير بنك الرايخ الالماني سابقاً . وقد كان مما قاله في محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جداً من

المرابين . ذلك أن الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية ؛ بينما المدين معرض للربح والخسارة ومن ثم فإن المال كله في النهاية لا بد ــ بالحساب الرياضي ــ أن يصير الى الذي يربح دائماً ! وأن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الارض الآن يملكه ــ ملكاً حقيقياً ــ بضعة ألوف، أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك والعمال ، وغيرهم ،فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف !

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة . . فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقـــامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة انه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدر عليهم ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء . . عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تشتغل فيها الملايين : وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال فتقل القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً . فيقبل عليه العاملون في

الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء . . وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين . فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية . أما الديون التي تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك . إذ أن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها . وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف . . وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ولا يكون إلا الاستعمار هو نهاية الديون . . ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار !

ونحن هنا – في ظلال القرآن – لا نستقصي كل عيوب النظام الربوي فهذا مجاله بحث مستقل [1] فنكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة

---

١ – تراجع البحوث القيمة الدقيقة التي كتبها المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي عن الربا وعن أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة . .

حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت :

الحقيقة الأولى : – التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان . وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوي من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا دجل وخداع . فأساس التصور الإسلامي – كما بينا – يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربوي ، ونتائجه العملية في حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم .

والحقيقة الثانية : أن النظام الربوي بلاء على الإنسانية – لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب – بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقاً ، ويعطل نموها الإنساني المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهري الخداع ، الذي يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام !

والحقيقة الثالثة : أن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مترابطان تماماً ، وأن الإنسان في كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن في كل نشاط يقوم به في حياته ، ومحاسب عليه في آخرته . فليس هناك نظام أخلاقي وحده ونظام عملي وحده ، وإنما هما معاً يؤلفان نشاط الإنسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن ، وإثم يؤاخذ عليه إن أساء . وأن الاقتصاد الإسلامي الناجح لا يقوم بغير أخلاق ، وأن الأخلاق ليست نافلة

يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية .

والحقيقة الرابعة : أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه ، وشعوره تجاه أخيه في الجماعة ؛ وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة . أما في العصر الحديث فإنه يعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار . كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحاً مضموناً ، فيؤدي الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين . ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال في الأفلام القذرة والصحافة القذرة والمراقص والملاهي والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التي تحطم أخلاق البشرية تحطيماً . . والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشىء أنفع المشروعات للبشرية ؛ بل همه أن ينشىء أكثرها ربحاً . ولو كان الربح إنما يجيء من استثارة أحط الغرائز وأقذر الميول . . وهذا هو المشاهد اليوم في أنحاء الأرض . وسببه الأول هو التعامل الربوي !

والحقيقة الخامسة : أن الإسلام نظام متكامل . فهو حين يحرم التعامل الربوي يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه ؛ وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفي منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل ، بدون مساس بالنمو الاقتصادي والاجتماعي والإنساني المطرد .

والحقيقة السادسة : أن الإسلام ــ حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص ــ لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوي ، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعي السليم . ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه . ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة . وفي أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

والحقيقة السابعة : ــ وهي الأهم ــ ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلماً ، بأن هناك استحالة اعتقادية في أن يحرم الله أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه ! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك في أن يكون هناك أمر خبيث ويكون في الوقت ذاته حتمياً لقيام الحياة وتقدمها . . فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة ، وهو مستخلف الإنسان فيها ؛ وهو الآمر بتنميتها وترقيتها ؛ وهو المريد لهذا كله الموفق إليه . فهناك استحالة إذن في تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله، شيء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه . وأن يكون هناك شيء خبيث، هو حتمي لقيام الحياة ورقيها .. وإنما هو سوء التصور، وسوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التي دأبت أجيالاً على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادي والعمراني ، وأن النظام الربوي هو النظام الطبيعي . وبث هذا التصور الخادع في مناهل الثقافة العامة ، ومنابع المعرفة الإنسانية في

مشارق الأرض ومغاربها . . ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلاً بسعي بيوت المال والمرابين . وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر . وهي صعوبة تنشأ أولاً من عدم الإيمان . كما تنشأ ثانياً من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذي اجتهد المرابون في بثه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ، وملكية للنفوذ داخل الحكومات العالمية . وملكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة .

والحقيقة الثامنة : أن استحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوي . . ليست سوى خرافة . أوهي أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التي يستخدمها أصحاب المصلحة في بقائها أجهزة ضخمة فعلاً ! وانه حين تصح النية ، وتعزم البشرية — أو تعزم الأمة المسلمة — أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية ، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع . فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد ، الذي أراده الله للبشرية ، والذي طبق فعلاً ، ونمت الحياة في ظله فعلاً ؛ وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفي ظلاله ، لو عقل الناس ورشدوا !

وليس هنا مجال تفصيل القول في كيفيات التطبيق ووسائله.. فحسبنا هذه الإشارات المجملة [1] وقد تبين أن شناعة العملية

---

١ — يمكن الرجوع الى بعض الاقتراحات العلمية في بحوث الأستاذ المودودي التي سبقت الإشارة اليها .

الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية ؛ وأن الإنسانية التي انحرفت عن النهج قديماً حتى ردها الإسلام اليه ؛ هي الإنسانية التي تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولاتفيء إلى النهج القويم الرحيم السليم .

فلننظر كيف كانت ثورة الإسلام على تلك الشناعة التي ذاقت منها البشرية ما لم تذق قط من بلاء :

* * *

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب :

« لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . .

وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة . . صورة الممسوس المصروع . وهي صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ؛ وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي ؛ ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة . وهي

وسيلة في التأثير التربوي ناجعة في مواضعها. بينما هي في الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة .. ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث . ولكن هذه الصورة - فيما نرى - واقعة بذاتها في حياه البشرية في هذه الأرض أيضاً . ثم إنها تتفق مع ما سيأتي بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله . ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في عقابيل النظام الربوي . وقبل أن نفصل القول في مصداق هذه الحقيقة من واقع البشرية اليوم نبدأ بعرض الصورة الربوية التي كان يواجهها القرآن في الجزيرة العربية ؛ وتصورات أهل الجاهلية عنها ..

إن الربا الذي كان معروفاً في الجاهلية والذي نزلت هذه الآيات وغيرها لإبطاله ابتداء كانت له صورتان رئيسيتان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فأما ربا النسيئة فقد قال عنه قتادة : « إن ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه » .

وقال مجاهد : « كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول : لك كذا وكذا تؤخر عني . فيؤخر عنه » .

وقال أبو بكر الجصاص : « إنه معلوم أن ربا الجاهلية إنما

كان قرضاً مؤجلا بزيادة مشروطة . فكانت الزيادة بدلاً من الأجل . فأبطله الله تعالى » .

وقال الإمام الرازي في تفسيره : « إن ربا النسيئة هو الذي كان مشهوراً في الجاهلية . لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ، ورأس المال باق بحاله . فإذا حل طالبه برأس ماله . فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل » .

وقد ورد في حديث أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال : « لا رِبا إلا في النّسيئة[1] » . .

أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة . كبيع الذهب بالذهب . والدراهم بالدراهم . والقمح بالقمح ، والشعير بالشعير . . وهكذا . . وقد ألحق هذا النوع بالربا لما فيه من شبه به ؛ ولما يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا . . وهذه النقطة شديدة الأهمية لنا في الكلام عن العمليات الحاضرة !

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح . . مثلاً بمثل . . يداً بيد . . فمن زاد

---

١ – رواه البخاري ومسلم .

أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي فيه سواء[1] » . .

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : « جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر برني فقال له النبي ﷺ : « من أين هذا » ؟ قال : كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع . فقال : أوّه ! عين الربا . عين الربا . لا تفعل . ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ، ثم اشتر به[2] » .

فأما النوع الأول فالربا ظاهر فيه لا يحتاج إلى بيان إذ تتوافر فيه العناصر الأساسية لكل عملية ربوية . وهي : الزيادة على أصل المال . والأجل الذي من أجله تؤدى هذه الزيادة . وكون هذه الفائدة شرطاً مضموناً في التعاقد . أي ولادة المال للمال بسبب المدة ليس إلا . .

وأما النوع الثاني ، فمما لا شك فيه أن هناك فروقاً أساسية في الشيئين المتماثلين هي التي تقتضي الزيادة . وذلك واضح في حادثة بلال حين أعطى صاعين من تمره الرديء وأخذ صاعاً من التمر الجيد . . ولكن لأن تماثل النوعين في الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية ، إذ يلد التمر التمر ! فقد وصفه ﷺ بالربا . ونهى عنه . وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد . ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضاً . إبعاداً لشبح الربا من العملية تماماً !

---

١ — رواه الشيخان .

٢ — متفق عليه .

وكذلك شرط القبض : « يداً بيد » . . كي لا يكون التأجيل في بيع المثل بالمثل ، ولو من غير زيادة ، فيه شبح من الربا ، وعنصر من عناصره !

إلى هذا الحد بلغت حساسية الرسول ﷺ بشبح الربا في أية عملية . وبلغت كذلك حكمته في علاج عقلية الربا التي كانت سائدة في الجاهلية .

فأما اليوم فيريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا — ربا النسيئة — بالاستناد إلى حديث أسامة ، وإلى وصف السلف للعمليات الربوية في الجاهلية . وأن يحلوا — دينياً — وباسم الإسلام ! — الصور الأخرى المستحدثة التي لا تنطبق في حرفية منها على ربا الجاهلية !

ولكن هذه المحاولة لا تزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية . . فالإسلام ليس نظام شكليات إنما هو نظام يقوم على تصور أصيل . فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة . إنما كان يناهض تصوراً يخالف تصوره ؛ ويحارب عقلية لا تتمشى مع عقليته . وكان شديد الحساسية في هذا إلى حد تحريم ربا الفضل إبعاداً لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جداً !

ومن ثم فإن كل عملية ربوية حرام ، سواء جاءت في الصور التي عرفتها الجاهلية أم استحدثت لها أشكال جديدة .

ما دامت تتضمن العناصر الأساسية للعملية الربوية ، أو تتسم بسمة العقلية الربوية .. وهي عقلية الأثرة والجشع والفردية والمقامرة . وما دام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث . شعور الحصول على الربح بأية وسيلة !

فينبغي أن نعرف هذه الحقيقة جيداً . ونستيقن من الحرب المعلنة من الله ورسوله على المجتمع الربوي .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » ..

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم — وإن كانوا هم أول المهددين بهذا النص الرعيب — إنما هم أهل المجتمع الربوي كلهم .

عن جابر بن عبد الله — رضي الله عنه — أنه قال : لَعَن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله ، وشاهديه وكاتبه ، وقال : « هم سواء[1] » .

وكان هذا في العمليات الربوية الفردية . فأما في المجتمع الذي يقوم كله على الأساس الربوي فأهله كلهم ملعونون . معرضون لحرب الله ، مطرودون من رحمته بلا جدال .

إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس

---

١ — رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي .

المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة . . وإذا كان هناك شك في الماضي أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هذه القرون لا تبقي مجالا للشك أبداً . .

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم – في أنحاء الأرض – هو عالم الاضطراب والقلق والخوف ؛ والأمراض العصبية والنفسية – باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين والعابرين لأقطار الحضارة الغربية . . وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار.. ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك .

إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادي ، ولا يسر الحياة المادية وخفضها ولينها في بقاع كثيرة . وما قيمة هذا كله إذا لم ينشىء في النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة ؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ؛ ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى ! حقيقة أن الناس في أكثر بلاد الأرض رخاء عاماً . . في أمريكا ، وفي السويد ، وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاء مادياً . . أن الناس ليسو

سعداء .. أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء ! وأن الملل أكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج ! وانهم يغرقون هذا الملل في العربدة والصخب تارة . وفي « التقاليع » الغريبة الشاذة تارة . وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة . ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب . الهرب من أنفسهم . ومن الخواء الذي يعشش فيها ! ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها . فيهربون بالانتحـــار . ويهربون بالجنون . ويهربون بالشذوذ ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبداً !

لمـــــاذا ؟

السبب الرئيسي طبعاً هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة — على كل ما لديها من الرخاء المادي — من زاد الروح .. من الإيمان .. من الاطمئنان إلى الله .. وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه .

ويتفرع من ذلك السبب الرئيسي الكبير .. بلاء الربا .. بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سوياً معتدلاً بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . إنما ينمو مائلاً جانحاً إلى حفنة الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف ، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة ؛ ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير

في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع ، والتي تكفل عملاً منتظماً للجميع ؛ والتي تهيء طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع .. ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح ، ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعاً !

وصدق الله العظيم : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » .. وها نحن أولاء نرى مصداق هذه الحقيقة في واقعنا العالمي اليوم !

ولقد اعترض المرابون في عهد رسول الله ﷺ على تحريم الربا . اعترضوا بأنه ليس هناك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية :

« ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا »

وكانت الشبهة التي ركنوا اليها ، هي أن البيع يحقق فائدة وربحاً ، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً .. وهي شبهة واهية . فالعمليات التجارية قابلة للربح وللخسارة . والمهارة الشخصية والجهد الشخصي والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة . أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة . وهذا هو الفارق الرئيسي . وهذا هو مناط التحريم والتحليل .

إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديده .. ولا مجال للمماحلة في هذا ولا للمداورة !

« وأحل الله البيع وحرم الربا » ..

لانتفاء هذا العنصر من البيع ؛ ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية ؛ وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية [1].

وقد عالج الإسلام الأوضاع التي كانت حاضرة في ذلك الزمان معالجة واقعية ؛ دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية :

« فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله » ..

لقد جعل سريان نظامه منذ ابتداء تشريعه . فمن سمع موعظة ربه فانتهى فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله ، يحكم فيه بما يراه .. وهذا التعبير يوحي للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله ورحمته ، فيظل يتوجس من الأمر ؛ حتى يقول لنفسه : كفاني هذا الرصيد من العمل السيىء ، ولعل الله أن يعفيني من جرائره إذا أنا انتهيت وتبت . فلا أضيف اليه جديداً بعد ! .. وهكذا

---

١ – تراجع البحوث القيمة في هذه الموضوعات : للأستاذ المودودي وقد سبقت الإشارة اليها .

يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد .

« ومَن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

وهذا التهديد بحقيقة العذاب في الآخرة يقوي ملامح المنهج التربوي الذي أشرنا اليه ، ويعمقه في القلوب !

ولكن لعل كثيرين يغريهم طول الأمد ، وجهل الموعد فيبعدون من حسابهم حساب الآخرة هذا ! فهاهو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالمحق في الدنيا والآخرة جميعاً ؛ ويقرر أن الصدقات – لا الربا – هي التي تربو وتزكو ؛ ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والإثم . ويلوح لهم بكره الله للكفرة الآثمين .

« يمحق الله الربا ، ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

وصدق وعيد الله ووعده . فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو طمأنينة . . إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين – في ظاهر الأمر – رخاء وإنتاجاً وموارد موفورة ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الآمن بهذه الموارد . وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد ؛ وإلى

القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده . ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب المبيدة ، كما تصحو وتنام في هم الحرب الباردة ! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوماً بعد يوم — سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا — ولا يبارك لهم في مال ولا في عمر ولا في صحة ولا في طمأنينة بـــال !

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون — الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع — وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع دائماً إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائماً إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها . . ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله — أفراداً وجماعات — في مالهم ورزقهم ، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم .

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يروا ، لأن لهم هوى في عدم الرؤية ! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبثوثة عمداً وقصداً من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت ؛ فضعفوا عن رؤية الحقيقة !

« والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يصرون على التعامل

الربوي — بعد تحريمه — من الكفار الآثمين ، الذين لا يحبهم الله . وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . فالإسلام ليس كلمة باللسان ؛ إنما هو نظام حياة ومنهج عمل ؛ وإنكار جزء منه كإنكار الكل . . وليس في حرمة الربا شبهة ؛ وليس في اعتباره حلالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم . . والعياذ بالله . .

° ° °

وفي الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم ، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا ونظامه ، يعرض صفحة الإيمان والعمل الصالح ، وخصائص الجماعة المؤمنة في هذا الجانب ، وقاعدة الحياة المرتكزة إلى النظام الآخر — نظام الزكاة — المقابل لنظام الربا :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

والعنصر البارز في هذه الصفحة هو عنصر « الزكاة » . عنصر البذل بلا عوض ولا رد . والسياق يعرض بهذا صفة المؤمنين وقاعدة المجتمع المؤمن . ثم يعرض صورة الأمن والطمأنينة والرضى الإلهي المسبغ على هذا المجتمع المؤمن .

إن الزكاة هي قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن: الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوي في أي جانب من جوانب حيـــاته .

وقد بهتت صورة «الزكاة» في حسنا وحس الأجيال التعيسة من الأمة الإسلامية التي لم تشهد نظام الإسلام مطبقاً في عالم الواقع ؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ، ثم يقيم لها النظام الذي تتنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية . ويجعل « الزكاة » قاعدة هذا النظام ، في مقابل نظام الجاهلية الذي يقوم على القاعدة الربوية . ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقي عن طريق الجهد الفردي ، أو التعاون البريء من الربا !

بهتت هذه الصورة في حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ التي لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صور الإنسانية . إنما ولدت وعاشت في غمرة النظام المادي ، القائم على الأساس الربوي . وشهدت الكزازة والشح . والتكالب والتطاحن والفردية والأثرة التي تحكم ضمائر الناس . فتجعل المال لا ينتقل إلى من يحتاجون اليه إلا في الصورة الربوية الخسيسة ! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات ، ما لم يكن لهم رصيد من المال ؛ أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم في مؤسسات التأمين الربوية وجعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذي تقوم به ، ما لم

تحصل عليه بالطريقة الربوية ! فوقر في حس هذه الأجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام إلا هذا النظام ؛ وأن الحياة لا تقوم إلا على هذا الأساس !

بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحساناً فردياً هزيلاً ، لا ينهض على أساسه نظام عصري ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهي تتناول اثنين ونصفاً في المائة من أصل رؤوس الأموال الأهلية [1] مع ربحها يؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة ، ويربيهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذي يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقاً مفروضاً ، لا إحساناً فردياً ، وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ؛ حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة في كل حالة ؛ وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان ديناً تجارياً أو غير تجاري ، من حصيلة الزكاة .

وليس المهم هو شكلية النظام ، إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذي يربيه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته ، متكامل مع التشريعات والتوجيهات ، ينبع التكافل من ضمائره ومن تنظيماته معاً

---

١ — ترتفع هذه النسبة الى ٥ بالمئة والى ١٠ بالمئـة والى ٢٠ بالمئة في الزروع والكنوز .

متناسقة متكاملة . وهذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشأوا وعاشوا في ظل الأنظمة المادية الأخرى . ولكنها حقيقة نعرفها نحن ــ أهل الإسلام ــ ونتذوقها بذوقنا الإيماني . فإذا كانوا هم محرومين من هذا الذوق لسوء طالعهم ونكد حظهم ــ وحظ البشرية التي صارت اليهم مقاليدها وقيادتها ــ فليكن هذا نصيبهم ؛ وليحرموا من هذا الخير الذي يبشر الله به : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ».. ليحرموا من الطمأنينة والرضى ، فوق حرمانهم من الأجر والثواب . فإذا بجهالتهم وجاهليتهم وضلالهم وعنادهم يحرمون !

إن الله ــ سبحانه ــ يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون ، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده .. ويعدهم بالأمن فلا يخافون وبالسعادة فلا يحزنون :

« فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

في الوقت الذي يوعد أكَلَة الربا والمجتمع الربوي بالمحق والسحق ، وبالتخبط والضلال ، وبالقلق والخوف ..

وشهدت البشرية ذلك واقعاً في المجتمع المسلم ؛ وتشهد اليوم هذا واقعاً كذلك في المجتمع الربوي ! ولو كنا نملك أن نمسك بكل قلب غافل فنهزه هزاً عنيفاً حتى يستيقظ لهذه الحقيقة الماثلة ؛ ونمسك بكل عين مغمضة فنفتح جفنيها

على هذا الواقع . . لو كنا نملك لفعلنا . . ولكننا لا نملك إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة ؛ لعل الله أن يهدي البشرية المنكودة الطالع اليها . . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان . والهدى هدى الله . .

* * *

وفي ظل هذا الرخاء الآمن يعد الله به الجماعة المسلمة ، التي تنبذ الربا من حياتها ، فتنبذ الكفر والإثم ، وتقيم هذه الحياة على الإيمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة . . في ظل هذا الرخاء الآمن يهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوي الدنس المقيت ؛ وإلا فهي الحرب المعلنة من الله ورسوله ، بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الربا . إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون » . .

إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا . فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويذروا ما بقي من الربا . ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون . فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به . والنص القرآني لا يدعهم في شبهة من الأمر . ولا يدع إنساناً يتستر وراء كلمة الإيمان بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله ، ولا ينفذه في

حياته ، ولا يحكمه في معاملاته . فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين . مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون !

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا . . إن كنتم مؤمنين » . .

لقد ترك لهم ما سلف من الربا – لم يقرر استرداده منهم ، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزءاً منها بسبب أن الربا كان داخلاً فيها .. إذ لا تحريم بغير نص . . ولا حكم بغير تشريع . . والتشريع ينفذ وينشيء آثاره بعد صدوره . . فأما الذي سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون . وبذلك تجنب الإسلام إحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريعه أثراً رجعياً . وهو المبدأ الذي أخذ به التشريع الحديث حديثاً ! ذلك أن التشريع الإسلامي موضوع ليواجه حياة البشر الواقعية ، وييسرها ، ويطهرها ، ويطلقها تنمو وترتفع معاً . . وفي الوقت ذاته علق اعتبارهم مؤمنين على قبولهم لهذا التشريع وإنفاذه في حياتهم منذ نزوله وعلمهم به. واستجاش في قلوبهم – مع هذا – شعور التقوى لله . وهو الشعور الذي ينوط به الإسلام تنفيذ شرائعه ، ويجعله الضمان الكامن في ذات الأنفس ، فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته . فيكون له من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التي لا تستند إلا للرقابة الخارجية ! وما أيسر الاحتيال على الرقابة الخارجية ،

حين لا يقوم من الضمير حارس له من تقوى الله سلطان .

فهذه صفحة الترغيب . . وإلى جوارها صفحة الترهيب . . الترهيب الذي يزلزل القلوب :

« فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . .

يا للهول ! حرب من الله ورسوله . . حرب تواجهها النفس البشرية . . حرب رهيبة معروفة المصير ، مقررة العاقبة . . فأين الإنسان الضعيف الفاني من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة ؟ !

ولقد أمر رسول الله ﷺ عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التي نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك إذا لم يكفوا عن التعامل الربوي . ولقد أمر ﷺ في خطبته يوم فتح مكة بوضع كل ربا في الجاهلية — وأوله ربا عمه العباس — عن كاهل المدينين الذين ظلوا يحملونه إلى ما بعد الإسلام بفترة طويلة ، حتى نضج المجتمع المسلم ، واستقرت قواعده ، وحان أن ينتقل نظامه الاقتصادي كله من قاعدة الربا الوبيئة . وقال ﷺ في هذه الخطبة :

« وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين . وأول ربا أضع ربا العباس » . . ولم يأمرهم برد الزيادات التي سبق لهم أخذها في حال الجاهلية .

فالإمام مكلف — حين يقوم المجتمع الإسلامي — أن

يحارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوي ، ويعتون عن أمر الله ، ولو أعلنوا أنهم مسلمون ، كما حارب أبو بكر — رضي الله عنه — مانعي الزكاة ، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامتهم للصلاة . فليس مسلماً من يأبى طاعة شريعة الله ولا ينفذها في واقع الحياة !

على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام . فهذه الحرب معلنة — كما قال أصدق القائلين — على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي . هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهي حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء. وحرب على السعادة والطمأنينة. حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض . حرب المطاردة والمشاكسة . حرب الغبن والظلم . حرب القلق والخوف .. وأخيراً حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول . الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت . فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر . وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات . ثم تقع فيها الشعوب والحكومات . ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب ! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب ! أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فيعم الفقر والسخط بين

الكادحين والمنتجين ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع — إن لم يقع هذا كله — هو خراب النفوس وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشري من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبة !

إنها الحرب المشبوبة دائماً . وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا . . وهي مسعرة الآن تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة ؛ وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع . . وكانت هذه التلال حَرية بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر ؛ ولكنها — وهي تخرج من منبع الربح الملوث — لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية، ويسحقها سحقاً ؛ في حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين ، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون !

لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى ، ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى المَشْرع الطاهر النظيف وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبيء :

« وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم . لا تَظلمون ولا تُظلمون » . .

فهي التوبة عن خطيئة . إنها خطيئة الجاهلية . الجاهلية التي لا تتعلق بزمان دون زمان ، ولا نظام دون نظام . . إنما هي

الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان ..
خطيئة تنشيء آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم وفي
تصورهم للحياة . وتنشىء آثارها في حياة الجماعة وارتباطاتها
العامة . وتنشىء آثارها في الحياة البشرية كلها ، وفي نموها
الاقتصادي ذاته . ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين ، أنها
وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي !

واسترداد رأس المال مجرداً ، عدالة لا يظلم فيها دائن ولا
مدين .. فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة .
لها وسيلة الجهد الفردي . ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة
وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه ، ومقاسمته الربح والخسارة .
ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق — بدون
سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح — وتناول الأرباح الحلال
من هذا الوجه . ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة على أن
تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال
التجارية مباشرة أو غير مباشرة — ولا تعطيها بالفائدة الثابتة —
ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا
فرض ووقعت .. وللمصارف أن تتناول قدراً معيناً من
الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال .. ووسائل كثيرة ليس
هنا مجال تفصيلها .. وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب ،
وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر ، وتجنب
المورد العفن النتن الآسن [1].

---

١ — تراجع بحوث الأستاذ المودودي التي سبقت الإشارة إليها .

ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين في حالة الإعسار . فليس السبيل هو ربا النسيئة : بالتأجيل مقابل الزيادة . . ولكنه هو الإنظار إلى ميسرة . والتحبيب في التصدق به لمن يريد مزيداً من الخير أوفى وأعلى :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدّقوا خير لكم . . إن كنتم تعلمون » . .

إنها السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية . إنه الظل الظليل الذي تأوي اليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار . إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذي يظل الجميع !

ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدي مفهوماً « معقولاً » في عقول المناكيد الناشئين في هجير الجاهلية المادية الحاضرة ! وأن مذاقها الحلو لا طعم له في حسهم المتحجر البليد . — وبخاصة وحوش المرابين سواء كانوا أفراداً قابعين في زوايا الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال ، للطعام والكساء والدواء، أو لدفن موتاهم في بعض الأحيان ، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ؛ فيلجأون مرغمين إلى أوكار الوحوش ، فرائس سهلة تسعى إلى الفخاخ بأقدامها . تدفعها الحاجة وتزجيها الضرورة ! سواء كانوا أفراداً هكذا أو كانوا في صورة بيوت مالية ومصارف

ربوية . فكلهم سواء . غير أن هؤلاء يجلسون في المكاتب الفخمة على المقاعد المريحة ؛ ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية ، والمؤلفات العلمية ، والأساتذة والمعاهد والجامعات والتشريعات والقوانين ، والشرطة والمحاكم والجيوش . . كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتها ، وأخذ من يجرؤ على التلكؤ في رد الفائدة الربوية إلى خزائنهم باسم القانون . . ! !

نحن نعرف أن هذه الكلمات لا تصل إلى تلك القلوب . . ولكننا نعرف أنها الحق . ونثق أن سعادة البشرية مرهونة بالاستماع إليها والأخذ بها :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

إن المعسر — في الإسلام — لا يطارد من صاحب الدين ، أو من القانون والمحاكم . إنما ينظر حتى يوسر . . ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين . فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه — إن تطوع بهذا الخير . وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين . وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة . لو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر !

ذلك أن إبطال الربا يفقد شطراً كبيراً من حكمته إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين، ويضيق عليه الخناق، وهو معسر لا يملك السداد . فهنا كان الأمر — في صورة شرط وجواب —

بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء . وكان يجانبه التحبيب في التصدق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار .

على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظاً من مصارف الزكاة ، ليؤدي دينه ، وييسر حياته : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . والغارمين . . . » وهم أصحاب الديون . الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى لذائذهم . إنما أنفقوها في الطيب النظيف . ثم قعدت بهم الظروف !

ثم يجيء التعقيب العميق الإيحاء ، الذي ترجف منه النفس المؤمنة ، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله ، ثم تمضي ناجية من الله يوم الحساب :

« واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » . .

واليوم الذي يرجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير ، له في القلب المؤمن وقع ؛ ومشهده حاضر في ضمير المؤمن ، وله في ضمير المؤمن هول . والوقوف بين يدي الله في هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان !

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات . جو الأخذ والعطاء .. جو الكسب والجزاء .. إنه التصفية الكبرى للماضي جميعه بكل ما فيه . والقضاء الأخير في الماضي بين كل من

فيه . فما أجدر القلب المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه .

إن التقوى هي الحارس القابع في أعماق الضمير ؛ يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فراراً منه لأنه في الأعماق هنـــاك !

إنه الإسلام . . النظام القوي . . الحلم الندي الممثل في واقع أرضي . . رحمة الله بالبشر . وتكريم الله للإنسان . والخير الذي تشرد عنه البشرية ؛ ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الإنســان !

مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَان

«يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، وَٱتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلاَّ ٱللهُ ؟ ـ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ (١٣٦). »

تجيء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول في سياق المعركة الحربية ، لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة : الوحدة والشمول في مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله ؛ ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة لله والعبودية له ، والتوجه اليه بالأمر كله ، والوحدة والشمول في منهج الله وهيمنته على الكينونة البشرية في كل حال من أحوالها ، وفي كل شأن من شؤونها ، وفي كل جانب من جوانب نشاطها ، ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنساني ، وتأثير هذا الترابط في النتائج الأخيرة لسعي الانسان كله ، كما أسلفنا .

والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها ، وينظم حياة الجماعة جملة لا تفاريق . ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب ، والسيطرة على الأهواء والشهوات ، وإشاعة الود والسماحة في الجماعة .. فكلها قريب من قريب .. وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات ، وكل توجيه من هذه التوجيهات ، يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة ، وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة !

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوي بالتفصيل في الجزء الثالث من هذه الظلال[1] فلا نكرر الحديث عنه هنا .. ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوماً يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ، ويتداروا به ، ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة ، أما الأربعة في المئة و السبعة والتسعة .. فليست أضعافاً مضاعفة . وليست داخلة في نطاق التحريم !

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع وليست شرطاً يتعلق به الحكم ، والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا — بلا تحديد ولا تقييد — : « وذروا ما بقي من الربا » .. أياً كان !

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول : إنه في الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة ، والتي قصد اليها النهي هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت ، أياً كان سعر الفائدة .

إن النظام الربوي معناه إقامة دورة المال كلها على هذه

---

١ — ص ٧٠ الى ص ٨٦ من الجزء الثالث من ظلال القرآن ط٢ منقحة .

القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهي عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهي تنشيء مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال .

إن النظام الربوي يحقق بطبيعته دائما هذا الوصف . فليس هو مقصوراً على العمليات التي كانت متبعة في جزيرة العرب . إنما هو وصف ملازم للنظام في كل زمان .

ومن شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والخلقية ــ كما فصلنا ذلك في الجزء الثالث ــ كما أنمن شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية ــ كما فصلنا ذلك أيضاً ــ ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها ، وتأثيره في مصائرها جميعاً .

والإسلام ــ وهو ينشيء الأمة المسلمة ــ كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية ، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية . وأثر هذا وذاك في نتائج المعارك التي تخوضها الأمة معروف . فالنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوماً في هذا المنهج الشامل البصير .

أما التعقيب على هذا النهي بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ، واتقاء النار التي أعدت للكافرين .. أما التعقيب بهاتين اللمستين فمفهوم كذلك ؛ وهو أنسب تعقيب :

إنه لا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويخاف النار التي أعدت للكافرين .. ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين .. والإيمان ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو اتباع للمنهج الذي جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان وجعل الإيمان مقدمة لتحقيقه في الحياة الواقعية ، وتكييف حياة المجتمع وفق مقتضياته .

ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي في مكان . وحيثما قام النظام الربوي فهناك الخروج من هذا الدين جملة ؛ وهناك النار التي أعدت للكافرين ! والمماحكة في هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة .. والجمع في هذه الآيات بين النهي عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله ، وإلى اتقاء النار التي أعدت للكافرين ، ليس عبثاً ولا مصادفة إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين .

وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وبتقوى الله .. فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى ولتحقيق منهج الله في حياة الناس ..ولقد سبق الحديث في الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات البشرية، وويلاته البشعة في حياة الإنسانية . فلنرجع إلى هذا البيان هناك ، لندرك معنى الفلاح هنا ، واقترانه بترك النظام الربوي المقيت !

ثم يجيء التوكيد الأخير :

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » ..

وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول ، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة . ولكن للتعقيب به على النهي عن الربا دلالة خاصة هي أنه لا طاعة لله وللرسول في مجتمع يقوم على النظام الربوي ، ولا طاعة لله وللرسول في قلب يأكل الربا في صورة من صوره . وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيداً بعد توكيد .

وذلك فوق العلاقة الخاصة بين أحداث المعركة التي خولف فيها أمر رسول الله ﷺ وبين الأمر بالطاعة لله وللرسول ، بوصفها وسيلة الفلاح ، وموضع الرجاء فيه .

ثم لقد سبق في سورة البقرة — في الجزء الثالث — أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا ، والحديث عن الصدقة بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية في النظام الاقتصادي ، وبوصفهما السمتين البارزتين لنوعين متباينين من النظم : النظام الربوي . والنظام التعاوني .. فهنا كذلك نجد هذا الجمع في الحديث عن الربا والحديث عن الإنفاق في السراء والضراء ..

فبعد النهي عن أكل الربا ، والتحذير من النار التي أعدت للكافرين ، والدعوة الى التقوى رجاء الرحمة والفلاح .. بعد هذا يجيء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة ، والى جنة عرضها السماوا ت والأرض (أعدت للمتقين).. ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو : « الذين ينفقون في السراء والضراء » — فهم الفريق المقابل

للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ـــ ثم تجيء بقية الصفات والسمات :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون في السراء والضراء . والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلو فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ـــ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـــ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .. » ...

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات في صورة حسية حركية .. يصوره سباقاً إلى هدف أو جائزة تنال :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » . « وجنة عرضهـــا السماوات والأرض ».. سارعوا فهي هناك : المغفرة والجنة . « أعدت للمتقين » .

ثم يأخذ في بيان صفات المتقين :

« الذين ينفقون في السراء والضراء »..

فهم ثابتون على البذل، ماضون على النهج ، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء . السراء لا تبطرهم فتلهيهم والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . انما هو الشعور بالواجب في كل حال ، والتحرر من الشح والحرص ، ومراقبة الله وتقواه .. وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال بفطرتها .. ما يدفع النفس

الى الإنفاق في كل حال ، إلا دافع أقوى من شهوة المال ، وربقة الحرص ، وثقلة الشح ..دافع التقوى . ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذي تشف به الروح وتخلص ، وتنطلق من القيود والأغلال ..

ولعل للتنويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك في جو هذه المعركة . فنحن نرى الحديث عن الإنفاق يتكرر فيها ، كما نرى التنديد بالممتنعين والمانعين للبذل – كما سيأتي في السياق القرآني مكرراً كذلك . مما يشير الى ملابسات خاصة في جو الغزوة ، وموقف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله .

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

كذلك تعمل التقوى في هذا الحق، بنفس البواعث ونفس المؤثرات فالغيظ انفعال بشري ، تصاحبه أو تلاصقه فورة في الدم ، فهو إحدى دفعات التكوين البشري، وإحدى ضروراته، وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ؛ وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع الى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهي وحدها لا تكفي . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين .. إنها العفو والسماحة والانطلاق ..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ، وشواظ يلفح القلب ، ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة في آفاق النور والبرد في القلب ، والسلام في الضمير .

« والله يحب المحسنين » ..

والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون . والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. والله « يحب » المحسنين .. والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير ، الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم ..

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين ، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه . وتنبثق الرغبة الدافئة في هذه القلوب .. فليس هو مجرد التعبير الموحي ، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير !

والجماعة التي يحبها الله ، وتحب الله .. والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان .. هي جماعة متضامنة ، وجماعة متآخية ، وجماعة قوية . ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق !

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — ولم يصروا

على ما فعلوا وهم يعلمون » ..

يا لسماحة هذا الدين ! إن الله – سبحانه – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا :

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين ..ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها ، من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة .. مرتبة « المتقين » .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته.أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم،وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله ، والاستسلام له في النهاية . فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى

طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفىء ،وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف ، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطىء وأن له رباً يغفر .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق ، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل ، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه ، والحبل في يده ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته .

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب ..إنه يطمعه في المغفرة ، ويدله على الطريق ، ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفيء إلى الحمى الآمن ، ويثوب الى الكنف الأمين .

شيء واحد يتطلبه ألا يجف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله ..وما دام يذكر الله . ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي . ما دام في قلبه ذلك الندى البليل ..فسيطلع النور في روحه من جديد وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبت البذرة الهامدة من جديد .

إن طفلك الذي يخطىء ويعرف أن السوط ــ لا سواه ــ في الدار .. سيروح آبقاً شارداً لا يثوب الى الدار أبداً . فأما إذا

كان يعلم أن الى جانب السوط يدأ حانية ، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود !

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب الثقلة رفرفة ، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية .. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود ، ويربت عليه في لحظة العثرة ليلحق به الى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ﷺ يقول : « ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة »[1] .

والإسلام لا يدعو – بهذا – إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! كما تهتف « الواقعية » ! إنما هو يقيل عثرة الضعف ، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحياء ! فالمغفرة من الله – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – تخجل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة في وجوههم الأسوار !

---

١ – رواه أبو داود والترمذي والبزار في مسنده من حديث عثمان بن واقد. وفي سنده صحابي مجهول ولكن ابن كثير في تفسيره صححه . وقال: « حديث حسن » .

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا ، والرحمة لهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ، ويأخذ بيدها الى أقصى طاقتها [1].

...هؤلاء المتقون ماهم ؟

« أولئك لهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين » ..

فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار من المعصية . كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . إنما هم عاملون « ونعم أجر العاملين » .. المغفرة من ربهم ، والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله .. فهنالك عمل في أغوار النفس ، وهناك عمل في ظاهر الحياة . وكلاهما حركة ، وكلاهما نماء .

وهناك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان التي يتعقبها السياق . وكما أن للنظام الربوي — أو النظام التعاوني أثره في حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة في الميدان ، فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذي أشرنا إليه في مطلع الحديث .. فالانتصار على الشح ؛ والانتصار على الغيظ والانتصار على الخطيئة ، والرجعة الى الله وطلب مغفرته ورضاه

---

١ — يراجع بتوسع فصل : « سلام الضمير » في كتاب : « السلام العالمي والإسلام » ...

كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة . وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح ! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته . ففي هذا تكون العداوة ، وفي هذا تكون المعركة ، وفي هذا يكون الجهاد . وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد . فهو إنما يعادي لله ، ويعارك لله ، ويجاهد لله ! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة في هذا السياق .. كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابسات الخاصة التي صاحبت هذه المعركة . من مخالفة عن أمر رسول الله ﷺ ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة . ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله بن أبي ومن معه . ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولي من تولى — كما سيرد في السياق — ومن غبش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله ، وسؤال بعضهم : « هل لنا من الأمر شيء » ؟ وقول بعضهم : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا » ..

والقرآن يتناول هذه الملابسات كلها ، واحدة واحدة ، فيجلوها ، ويقرر الحقائق فيها ، ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها .. على هذا النحو الفريد الذي نرى نماذج منه في هذا السياق .

مِن سُورَة النِسَاء

«فَبظُلْمٍ من الَّذينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهم طَيِّبَاتٍ أُحلَّتْ لَهُمْ، وبصَدِّهم عَنْ سَبيل اللهِ كَثيراً (١٦٠) وأَخْذِهِمُ الرِّبَا ـ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ـ وَأَكْلِهم أَمْوَالَ النَّاسِ بالْبَاطلِ، وأَعْتَدْنَا للْكَافِرِينَ منهم عَذَاباً أليماً» (١٦١).

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه . وأكلهم أموال الناس بالباطل . وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » .

فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم هذه المنكرات الجديدة : الظلم . والصد الكثير عن سبيل الله ، فهم ممعنون فيه ودائبون عليه . وأخذهم الربا ـ لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه ـ فقد

نهوا عنه فأصروا عليه ! وأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وبغيره من الوسائل .

بسبب من هذه المنكرات، ومما أسلفه السياق منها. .حرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم . وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً .

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم ، وفضح تعلاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم ، ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم ، ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء في حق الأنبياء والصالحين : بل قتلهم والتبجح بقتلهم ! وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم . وتعرف الجماعة المسلمة — ما ينبغي أن تعرفه الأمة المسلمة في كل حين — عن طبيعة اليهود وجبلتهم ، ووسائلهم وطرائقهم ، ومدى وقوفهم للحق في ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم . فهم أعداء للحق وأهله ، وللهدى وحملته . في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم . مع أصدقائهم ومع أعدائهم . . لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته ، جاسية قلوبهم ، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة ! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم . .

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ، ليقصر على الجماعة المسلمة الأولى في المدينة ، فالقرآن هو كتاب هذه

الأمة ما عاشت ، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها ، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها ، وإذا استرشدت به أرشدها ؛ وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود ، فدانت لها رقابهم .. ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود ، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة ، وهي غافلة عن كتابها .. القرآن .. شاردة عن هديه ، ملقية به وراءها ظهرياً ! متبعة قول فلان وفلان !! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود ، حتى تثوب إلى القرآن ..

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود ، حتى ينصف القليل المؤمن منهم ، ويقرر حسن جزائهم ، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق . ويشهد لهم بالعلم والإيمان ، ويقرر أن الذي هداهم إلى التصديق بالدين كله : ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله ، هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان .

مِنْ سُورَةِ الرّوم

«فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨)

«وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ »(٣٩)

وما دام المال مال الله ، أعطاه رزقاً لبعض عباده ، فالله صاحب المال الأول قد قرر قسماً منه لفئات من عباده ، يؤديها إليهم من يضع يده على ذلك المال . ومن ثم سماها حقاً . ويذكر هنا من هذه الفئات « ذا القربى والمسكين وابن السبيل » . ولم تكن الزكاة بعد قد حددت ولا مستحقوها قد حصروا . ولكن المبدأ كان قد تقرر . مبدأ أن المال مال الله ، بما أنه هو

الرازق به ، وأن لفئات من المحتاجين حقاً فيه مقرراً لهم من صاحب المال الحقيقي ، يصل إليهم عن طريق واضع اليد على هذا المال . . وهذا هو أساس النظرية الإسلامية في المال . وإلى هذا الأساس ترجع جميع التفريعات في النظرية الاقتصادية للإسلام . فما دام المال مال الله ، فهو خاضع إذن لكل ما يقرره الله بشأنه بوصفه المالك الأول ، سواء في طريقة تملكه أو في طريقة تنميته ، أو في طريقة إنفاقه ، وليس واضع اليد حراً في أن يفعل به ما يشاء .

وهو هنا يوجه أصحاب المال الذين اختارهم ليكونوا أمناء عليه إلى خير الطرق للتنمية والفلاح . وهي إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، والإنفاق بصفة عامة في سبيل الله :

« ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون »

وكان بعضهم يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا إلى الموسرين من الناس ، كي ترد عليه الهدية مضاعفة ! فبين لهم أن هذا ليس الطريق للنماء الحقيقي : « وما أتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » . . هذا ما تذكره الروايات عن المقصود بالآية وإن كان نصها بإطلاقه يشمل جميع الوسائل التي يريد بها أصحابها أن ينموا أموالهم بطريقة ربوية في أي شكل من الأشكال [1] . . وبين لهم في الوقت ذاته وسيلة

---

١ – غير أن هذه الطريقة لا حرمة فيها كحرمة الربا المعروف ، غير أنها ليست طريقة النماء الزكي الكريم .

النماء الحقيقية :

« وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

هذه هي الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس . إنما هي إرادة وجه الله ، أليس هو الذي يبسط الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذي يعطي الناس ويمنع ؟ فهو الذي يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه؛ وهو الذي ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس .. ذلك حساب الدنيا ، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة . فهي التجارة الرابحة هنا وهناك !

الفهرس

الصفحة

القضاء والقدر

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن

الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي

الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى

الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب

الإمام الغزالي

الأدب في الدين

الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان

الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب

الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة

الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات

تأليف الدكتور علي عبد الله الدفاع

تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي

مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي

الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق

دكتور رؤوف شلبي

رقم الإيداع : ٥٩٢٥ / ٨٨
الترقيم الدولي : ٢ ـ ٢٦٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

بيروت: شارع الياس، شارع سيدة عبد قايا، بناية صفتا ص.ب: ٨٠٦٤ - برقياً: داشروق
تلكس ٢٠١٧٥ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٣٠٢٩٨١ - ٨٦٧٥٥٥ - فاكس ٨١٧٧٦٥
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٢٩٢٣٣/٣٩٣٤٥٧٨ فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس
٩٣٠٩١ ٨ شارع سيبويه المصري، مدينة نصر ت: ٢٦٣٣٩٩٨، ٢٦٣٣٨١٨ - فاكس ٢٧٥٦٧